تمثلات الكولونيالية الجديدة

في رواية «2084 حكاية العربي الأخير»[1]

د/ عبد القادر فيدوح. جامعة قطر
Abdelkader.f@qu.edu.qa

ملخص البحث:

تـدور فكـرة رواية (2084 حكايـة العربي الأخير) حول مآل العـرب الذي كان سببه الانحـدار إلى الانحلال في ظل الأزمـات والصراعـات الدوليـة، خاصة تلك التي تجري بـين القوى العظمى والأنظمـة العربية الشموليـة، أي بين إرادة السلطة ورغبة الاستسلام، والطاعة، وقد مثل الطرف الثاني الشخصية الرئيسة في الرواية (آدم) التي أريد لها أن تكون عالمـا فيزيائيـا نوويا، ومشْرفا على مشروع «صنع قنبلة نوويَّة مصغَّـرة»، يسهل وضعها في الزمان والمكان المحددين، وهي فكرة مستوحاة من الخيال، تحاكي مجريات أحداث العالم العربي اليوم. وقد اختار الكاتب قلعة (آرابيا)، في إشارة إلى الدول العربية، في حين اختار مسمى (أميروبا) وهي كلمة مركبة من أميركا وأوروبا.

لقـد كان للحـروب العبثية بين العرب والغرب، أو فيما بين العرب أنفسهم، الأثر البالغ في تفتيت العرب وتشتيتهم إلى شظايـا. ولم يعد لهم أي دور في بناء حضارة الألفية الثالثـة، بفعل التمزقات الطائفية والعرقية، حتى بات أفضل العربي يوصم بـ: «العربي الجيد هو العربي الميت».

وتطرح الرواية أسئلة أنطولوجية في ظل الأزمات الوجودية، بعد صناعة الإرهاب، وتحديد العدو؛ لتحقيق الهدف على الطريقـة الميكيافيليـة Niccolò Machiavelli بوصفها نظرية تعكس «الغاية تـبرر الوسيلة»؛ أي استخدام العنف من أجل إثبات القوة للسيطرة على الشعوب، وهو ما تتبناه دول (أميروبا) بحسب تعبير الرواية في استراتيجياتها السياسية، التـي لم تجـد غير شخصية (آدم) المُدَرَّب على إنجاز فعل الموت بسباق محمـوم، ويقوم بالحرب في (أرابيا) بالوكالة في صورة خيالية لها من القرائن الدالة ما تعكس الواقع.

الكلمات المفاتيح:

العربي، الأخير، الواقع، السرد، آدم، ليتل بروز، أرابيا، أميروبا

---

(1) نظرا إلى أن الدراسة طويلة، فقد قسمت إلى جزئين، تتضمن هذه الدراسة الجزء الثاني، في حين سيصدر الجزء الأول- بعنوان آخر.

The representations of new colonialism

In the novel of The Last Arab

Dr. Abdelkader Fidouh
Qatar University
Abdelkader.f@qu.edu.qa

Abstract :

The novel (2084 The Last Arab) revolves around the fate of the Arabs, which was caused by the decline to decay in light of international crises and conflicts, especially those that are taking place between the great powers and the totalitarian Arab regimes, i.e. between the will of the authority and the desire to surrender and obedience. In the novel, Adam, created by the West, was a nuclear physicist, overseeing the project of «making a mini-nuclear bomb», easy to place in a specific time and place. This is an idea inspired by imagination, simulating the events of the Arab world today. The writer chose to name the castle (Arabia), in reference to the Arab countries, while he chose the name (Ameropa), a word compound from America and Europe.

The Arab-Western futile wars, or among the Arabs themselves, have had a profound effect on the fragmentation of Arabs, which have no role in building the civilization of the third millennium due to sectarian and ethnic ruptures. Even the best Arab was described as «the good Arab is the dead Arab.»

The novel raises Ontology questions in the context of existential crises, after creating terrorism, and the identification of the enemy; to achieve the goal on the Machiavelli method; whose theory of «the end justifies the means», meaning the use of violence to prove the power to control people. This is adopted by Ameropa countries in their political strategies, according to the novel, who found in (Adam) the right person to accomplish the act of death in a frantic race, and the war in Arabia acting in a fictional form of evidence that reflects the reality.

Keyword :

Arab, last, reality, narrative, Adam, Little Broz, Arabia, Ameropa

سؤال الأنطولوجية / فعل الكون

تشكل أحداث رواية (حكاية العربي الأخير) بؤرة جديدة في منظور السرديات السياسية، وتجسد معنى الانفتاح على الرؤية الفكرية لما بعد الحداثة، بوصفها انفتاحًا على عوالم ممكنة، ملتبسة، تسعى إلى تقويض مسار السرديات الكبرى، وتحولها إلى مساءلة خلافية، تستمد طروحاتها من اضطرابات الوجود الأحطّ، والأردأ، في تأدية الواقع إلى التيه، وهو ما خلق وعيًا جديدا غير قابل للفهم، على نحو ما عبرت عنه جميع أصوات شخصيات (حكاية العربي الأخير) التي استطاعت أن توحد مواقفها الفكرية نحو التضليل، على الرغم من اختلاف هوية الشخصية الرئيسة (آدم) مع باقي أصوات الشخصيات الأخرى المتحكمة في دواليب السرد بمجرياته السياسية؛ بدافع التأثير في أنظمة الوعي الحضاري الذي بات مرهونا بالعسف والاستبداد؛ لفرض وجهة النظر الواحدة من قبل الراوي المطلق العليم بما ينبغي أن يكون عليه الواقع المبهم في ظل النظام العالمي الجديد، ومن زاوية نظر هدم الآخر، وتخريب مقوماته، وتسفيه مبادئه، وتغيير طبيعة العلاقات الإنسانية في اتجاه سياق (التابع).

وفي هذه الحال، كان على الرواية الجديدة ذات الطابع السياسي أن تطور موضوعاتها، وتخلق أشكالا جديدة، قادرة على التعامل مع تلك التغيرات بما يجعلها منعكسة في الأعمال الروائية الفنية، وربما حتى بما يجعلها أكثر فرادة وتأثيرًا، وفي أحسن الأحوال وجدت الرواية السياسية إمكانيات عدة لبلوغ الشكل الروائي الذي يمكن من خلاله للغة والهياكل الروائية انتزاع الحقيقة والجمال من براثن فوضى العالم الحديث... وقد ساهمت الرواية الحديثة في صناعة وسيلة يمكن من خلالها طرح الأسئلة المناسبة، ونعني بذلك: مساءلة التغيُّرات التي جاءت بها الحداثة[1]، وبخاصة أفكار الكولونيالية الجديدة التي تحاول أن تدحض بناء الموروث الثقافي، وإدخال الواقع في استشكال حضاري، وفي ضوء ذلك فإنه لابد من «لزوم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لا بدَّ من ربطها بمظاهر الحياة السياسية والثقافية»[2].

وإذا كانت الكولونيالية تستعرض قواها العسكرية والحضارية لاستغلال الهوية الوطنية المستعمَرة، فإن ما بعد الكولونيالية وظفت طاقتها الثقافية والحضارية لممارسة التفكيك، والهدم، وتقويض الثقافة المحلية بكل ما تملكه من آليات مادية، ومعنوية، وثقافية، وسياسية؛ بدافع إلحاق الذات الوطنية بالآخر (الغربي)، وجعله تابعا بمفهوم سبيفاك (Spivak, Gayatri) في سؤالها الاستنكاري: (هل يستطيع التابع أن يتكلم؟). إذا كان الأمر كذلك مع الكولونيالية، فإن الكولونيالية الجديدة تجاوزت مرحلتي الاستغلال والتبعية إلى تأسيس منهجية الهدم، والدمار، والهول، والفزع، والإبادة، والإماتة، والاجتثاث، والفتك، وكل ما يحوزه البطش، والخراب، والتهجير القسري، كما استبدلت الكولونيالية الجديدة مركَّب العظمة الغربية بالاعتزاز بالهوية المحلية، وجعلت الذات الوطنية تقاتل نفسها بنفسها، وتأكل بعضها لضَوَرِها الشديد بسفك الدماء، وتمزق مصيرها بإرادتها الهوجاء، سواء عبر التطهير العرقي، أو عبر النعرات الدينية، أو عبر الخلافات الهامشية، وجعلها متناحرة فيما بينها، وبذلك تحولت المواجهة في مفهوم الكولونيالية الجديدة من اختلاف الأنا مع الآخر إلى مصارعة الذات مع ذاتها، وتفتيتها، بكل ما توصلت إليه الهمجية من أساليب وحشية، وبحجج واهية، على نحو ما جاء في حوار بين المارشال وملارمي: « اليوم في أرابيا.. يتقاتلون... يسحبون السيوف والسكاكين على بعضهم البعض ...

(1) ينظر، جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ترجمة، لطفية الدليمي، دار المدى، 2106، ص159.

(2) إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص8، 9.

ويمحون آثارهم منتصرين كانوا أو منهزمين»[1]، ولنا في ذلك من الأحداث والمشاهد الدموية التي وصفتها الرواية، ومازالت منتشرة في أوطاننا، ما تقشعر له الفرائص، وتصطك منه الأبدان من هول ما يقع، بعد أن جُرد الإنسان من إنسانيته، وأعيد إلى بهيميته.

يبدو أن منطق الحقيقة صار يتجه مع الكولونيالية الجديدة نحو الانهيار بتلوين النهج المعياري الذي مارس وظيفته منذ أمد بعيد؛ إذ لا جدوى من معنى حقيقي في نظر الكولونيالية الجديدة؛ بإدخال العالم في حقل التجارب، وتغييب اليقين من عقل الإنسان. ومع تداخل المفاهيم، وتضارب المصالح لم يعد للوعي الجديد إمكانية قابلية السرديات الكبرى التي سادت عصورًا، كما لم يعد لثقافة المركز أي دور فاعل، بعد أن أسهمت في إزاحة الوعي الإنساني عن القيم، وحلِّ الذات وتفكيكها، ومن ثم أصبح المسعى الأساس هو الكشف عن الشذوذ الذي تمارسه الذات في تدمير ذاتها بذاتها. وفي ضوء ذلك فإن إعادة رسم النهج المعياري للهويات أصبح يتلون في اتجاه التشتت الأخرق الذي أشار إليه صامويل هنتنغتون Samuel Huntington في كتابه (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد) الذي بدأ يأخذ شكلين: «على المستوى المحلي أو الصغير، تحدث صراعات خطوط التقسيم بين دول الجوار المنتمية إلى حضارات مختلفة، وبين جماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة داخل دولة ما، وبين جماعات تحاول إقامة دول جديدة على أنقاض الدول القديمة، كما حدث في الاتحاد السوفياتي السابق، ويوغسلافيا السابقة. صراعات خطوط التقسيم متفشية، خاصة بين المسلمين»[2]

يتخذ الكاتب في حكاية العربي الأخير أسلوب التّحذير في اللامقول في النص؛ لتنبيه المتلقي إلى ما يحاك حوله من دسائس، وأسلوب المغامرة في اللاحدود، وأسلوب اللا جدوى من الوصول إلى معنى حقيقي، وهو أسلوب يدعو إلى الحيرة فيما يقع من مجريات أحداث عصية على الفهم، باتت تدفع الإنسان إلى طرح السؤال عن العلل التي أصبحت تتحكم في الوجود بمعزل عن التفسير العقلي، نظير ما تفرضه الأحداث من هستيريا الدمار وتفتيت الواقع بالحروب العبثية، وتشتيته إلى إثنيات، « في أرابيا، أيضا، حروب طاحنة مزقتها وقتلتها، بدأت بتمزق محدود، إثني، أو قبلي، أو عرقي، أو لغوي، قبل أن يتحول إلى حرب عبثية بلا نهاية. داخل هيكل أرابيا، هناك أرابيات، شيعة وسنية، دروز وأرمن، وأكراد وأمازيغ، لم يعترف لهم بأي حق، الباقي يقفون على أرض هشة»[3]

ومهما حاول المرء أن يستوضح تعلات واقع الحال، يجد نفسه متجاوزًا، إدراكًا، وتخيلًا، نظير ما يجري من أحداث تخطت الواقع إلى ما فوق الواقع، وتجاوزته إلى كون آخر ملغز، خلق نوعا من «الوعي المثبط بالوضع» على حد تعبير فريدريك جيمسون Fredric Jameson؛ إذ كل وعي يخلق في ذاته صراعات حادة من المفاهيم، تشكل في ذاتها أكوانا خيالية، غير قارة على حال، وبشكل متناقض. وإذا كانت القاعدة الأنطولوجية ontology تحاول أن ترسي نظرياتها على توكيد الوعي الذي ينظم الواقع، فإن الكولونيالية الجديدة تنظر إلى الواقع بما فوق الواقع، بحسب تعبير جان بودريار Jean Baudrillard الذي انتقد الغرب في معظم كتاباته، خاصة في كتابه قوة الجحيم (Power Inferno 2002) وروح الإرهاب The Spirit of Terrorism كما جاء في قوله: «لا يتعلق الأمر بصراع الحضارات، بل

(1) واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر 2015 ص 15.

(2) صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، ط2، ص336.

(3) واسيني الأعرج، حكاية العربي الأخير، ص 148.

بمواجهة أنثربولوجيَّة بين ثقافة عالميَّة متماثلة، وكلّ ما يحتفظ في أيّ مجال بشيء من التمايز يحول دون تذويبه في تلك الثقافة. ووفقًا لتلك الثقافة العالميَّة تغدو كلُّ الأشكال المختلفة للخصوصيَّة بمثابة هرطقات، تمامًا كما هو الحال في الأصولية الدينية. إنَّ رسالة الغرب تتمثل في إخضاع الثقافات المتعددة لقانون المعادلة القهري بكافة الوسائل الممكنة. إنَّ مثل هذا النظام يرى في كلّ شكل عصي عليه إرهابًا مفترضًا... فالعالم الحر لا يتحمَّل ... أن يقف بلد ما في مواجهته، مهما كانت خلفيته الدينيَّة التي يستند إليها، فمن غير المسموح الاعتراض على الحداثة في نزعتها الكونيَّة»[1]

ترسم شخصيات الآخر في «حكاية العربي الأخير» رؤية خاصة لإعادة تكوين العالم من خلال هدم المرجعية المعيارية، وهي بذلك تحمل في تضاعيف مضامين أفكارها مقومات الفتنة والضلال، وما فتئت هذه المقومات تنتج صناعة العنف بأشكاله، الظاهر منها والباطن، وقد أسهمت فيها صورة الضمير العربي الواهي- بشكل مباشر- عن طريق شخصيات وكيلة سيكوباتية، رهنت نفسها للآخر، واستبدلت شناعة الموت، بنضارة الحياة، ونعيمها، على نحو ما ترسمه صورة الوعي الذاتي في شخصية (آدم)، التي أظهرها الكاتب بصفات متعفرة في وحل خطيئة الآخر؛ بتمزيق شرفها، وتدمير كيانها الحضاري، وبشكل علني، وهو ما تجسده الكثير من مؤسسات هذا الضمير، المزدرية بمكوناتها، وبمبادئها، وبذلك أصبح تشظي الوعي أحد مبررات تفتيت الكينونة، إزاء النزعة العدمية، واضطراب الوجود، أمام خلفية التباس الكون المذهل، وفي ضوء ذلك أسهمت شخصية (آدم) في رسم صورة مقيتة في سرد الرواية، وسط أحداث مليئة بصخب العنف والانكسار القيمي والحضاري والنفسي، وهو ما جعل الآخر يصفه بأشد علامات الوصم، وبكل الصفات الوضيعة، التي عبرت عنها إحدى شخصيات النموذج الغربي في الرواية بقولها: «...هؤلاء الآرابيين القادمين من بعيد، مساكين حقيقة، تأكلهم الصحاري والبرد والمجاعات، انظري، عظامهم تكاد تتكسر وتخرج من تحت الجلد من شدة الجوع والتعب والخوف، تكاد خرقهم التي تمزقت على جلودهم أن تنتفي نهائيا، وتكشف عن بقايا أجسادهم المتهالكة، يتقاتلون على لا شيء، لكني مستغرب كيف لا يأكلون لحم بعضهم البعض ويفضلون الموت والتحول إلى غبار للمقابر».[2] وفي هذا التوصيف من شخصية (الكولونيل صامويل) صورة لا يمكن أن يعقلها امرؤ، بوصفها تشويها علنيًا جائرًا في حق كينونة الإنسان العربي الحديثة، على الأقل من ناحية ثقافة احتواء تراكيب الأشياء في مقوماتها المادية، ناهيك عن الكثير من القيم والمبادئ الإنسانية؛ ولعل الأبرز في تمثيلات سرد الرواية هو ما جعل الآخر المتغطرس صانعا محترفا للفرضية الإرهابية بخطة ممنهجة لفعل الدمار، في صورة العدو المتصور كما يطلقه عليه (بيار كونيسا Pierre Conesa بطرحه هذا التساؤل: « لماذا العدو؟ ما الدور الاجتماعي والسياسي الذي يؤديه في المجتمعات المعاصرة؟ هل يجب على الهوية أن تبنى بالضرورة ضد «الآخر»؟ يعتبر كارل شميت أن هذه هي وظيفة السياسي بذاتها، فالعدو إذًا هو الآخر، الشر، التهديد، ولا يمكن فصله عن الحياة، كالمرض، ... وهو يقدم خدمات كثيرة، ويعمل مهدئا، خصوصا عبر المسؤولية التي يمثلها (الحقيقة أو المتخيلة) في قلقنا الجماعي، ويمكن لصناعة العدو أن ترسخ الأواصر الجمعية، ويمكن أن

(1) Jean Baudrillard. J. The Spirit of Terrorism and Requiem for the Twin Towers. Trans. C. Turner (London: Verso. 2002) p 91.
وينظر أيضا، بدر الدين مصطفى أحمد، عن الإرهاب والحرب العالميَّة الرابعة: قراءة في كتاب روح الإرهاب لجان بودريار، الرابط،
http://www.mominoun.com

(2) حكاية العربي الأخير، ص 69.70

تكون مخرجا بالنسبة إلى سلطة تواجه مصاعب على الصعيد الداخلي».[1] وفي هذا ما يشير إلى أن العدو صُنع في ثقافة قبيلة أرابيا بالوكالة، ودرب على إنجاز فعل الموت بسباق محموم، وهو ما يطلق عليه بالعدو الحميم، أو العدو الضمير الواهي، رغبة في التقرب إلى دار الخلد، ظاهريا، وللتغرّب في ذات الآخر باطنيا؛ إذ «كل شيء يراهن على الموت، ليس فقط من خلال هجمة الموت مباشرة ـ في الزمن الواقعي على الشاشات ـ التي تقضي بضربة واحدة على سيمولاكرات Simulacres العنف والموت التي تتدفق إلينا يوميا بجرعات تجانسية، إنما عبر غزوة موت أكثر واقعية، رمزية وقربانية، أي الحدث المطلق والعبثي»[2] لاستقواء الآخر. وفي نظام الكولونيالية الجديدة كما في نظام فكر ما بعد الحداثة يكون البقاء للأقوى، وبضرورة إلزام الآخر بالتبعية، وفي ضوء ذلك تغدو المهمة محكمة التدبر من القوة الناعمة، وبفعل الطرق المبتكرة لسبل المحو، والإقصاء، من أجل إعادة خلق تراتبية جديدة لنظام الكون، ومن منظور أن قوة الإنسان الحديث تكمن في خلق ذاكرة جديدة بوعي جديد تفرضه إرادة القوة بحسب تعبير نيتشه؛ إذ «أرفع القيم تقوم بتدمير نفسها»، وفي حال تعذُّر ذلك تتسلل القوة الناعمة المضيافة من دون استئذان؛ لتقوم بما يلزم من تشظٍ ممنهج، وفصم الذات عن بعض ذواتها، وتقزيم ذاكرتها، واستحالة خلق وعي متجانس في ظل الوقع الحالك، والمستقبل القاتم.

إن فعل الانهيار بالدلالات القاتمة هو ما يسلكه السرد مع جميع الشخصيات في حكاية العربي الأخير التي تعد وثيقة دالة على النسق المهيمن من فعل الخراب الذي تمارسه الذات بعملها الإجرامي الشنيع في حق الهوية والمصير.

وقد يكتشف المتلقي في الرواية أن العنف الملبَّس – بالمقاس – للثقافة العربية الإسلامية في شخصية (آدم)، تجاوز حدود الإرهاب الفردي في مسميات دالَّة لشخصيات بعينها إلى إلصاق التهمة بالإرهاب في صيغته الثقافية بالمؤسسات، وبعض الدول؛ لكي تكون ثقافة العنف هذه شاهدًا على تكريس الفعل الوحشي، وشَامَة ثقافية متوالية في جبين ذويها، ورغبة في تأصيل الظاهرة في وعي المجتمعات القادمة، وتأثيرها السلبي على حياة الحضارات القادمة، وهو ما رسمه السرد الفجائعي في شخصية (آدم) الذي وقع فريسة في مخالب النسور، في إشارة إلى حضارة الكولونيالية الجديدة؛ إذ « بدا كأنه ميت، أو يموت. لا قوة فيه، اقتربت منه ذئاب براري الشمال، كانت تظهر أنيابها الحادة من شدة الجوع، كأنها كلها اتفقت عليه، أحاطت به وهي تستعد للهجمة القوية التي تشل حركته ، وتحوله إلى طعم سائغ»[3]

إدارة التوحش / من يدبر؟ ومن يدير؟

استطاعت الكولونيالية الجديدة بكل ما تملك من ثقل منهجي أن تستولي على مجال الوعي الثقافي والسياسي ـ على وجه التحديد ـ وإذا كان ذلك هو ما تؤكده هوية البراديغم الجديد، فمن باب المقام الأول الحرص على تعزيز مكانتها بتصدير ثقافة القوة الذكية الناعمة، وتعميمها على الهويات المحلية لاحتوائها، ثم محاولة تفكيكها، واستبدال البراديغم الناعم بالهوية التليدة، والممزقة؛ اعتقادا منها أنها لم تعد تقدم البدائل الحضارية للجيل الجديد، الواعد، الذي صار ينظر إليها بوصفها تمثل العجز المجهض لمسيرة حضارية جديدة، ومن ثمَّ استحالت إلى استيعاب كل الرؤى الثقافية المتنوعة.

(1) بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة نبيل عجان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2015، ص 16.

(2) جان بودريار، وإدغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2005، ص64.

(3) حكاية العربي الأخير، ص 457.

ولعل السبيل الوحيد في نظر الكولونيالية الجديدة هو تحصين القوة الذكية الناعمة، وتسديد الرادع الأمني الذي لا يقبل أية تسوية مع أيٍّ كان، وحيثما كان. وللوصول إلى هذا المرام ينبغي تفكيك مكونات الهوية الوطنية بالتحايل الثقافي، ومخاتلة الرأي بالمداهنة، وليس بالسلاح، وبمنظومة إعلامية تمتلك احترافية، عالية الجودة، في التضليل بتوظيف تكنولوجيا المعلوماتية، واستعمال لعبة خداع البصر، كما جاء في قول المارشال ليتل بروز في نقل بعض الصور المزيفة لأحداث مفتعلة: «هههه هل هي الغباوة الكبيرة، أم الذكاء المطلق للتكنولوجيا. على أي لو كنت مكان آدم المسكين لصدقت كل هذا الهراء ؛ فهو من الدقة بحيث لا يترك مجالا للشك أبدا»[1]؛ إذ تقدم مثل هذه التقنية معلومات مقنِعة بسرعة البرق، ودقة العرض في التشويه حتى يُتأكد من صحتها من دون أدنى شك. وليس من سبيل إلى ذلك إلا بتكريس مرايا العنف، واختلاق العنف المضاد ؛ لأنهما يشكلان المنهج الوحيد الذي تزداد معه قناعة الذات أنها بحاجة إلى الآخر، بوصفه المنقذ من الهلاك، والحامي الأساس لحصانة استتباب الأمن بالشرطي العالمي، وفي حال استعصاء ترويض الخصم ينبغي تدميره، كما جاء في قول ليتل بروز: «إن العدو إذا أردت أن تدمره إما أن تمحوه، أو ترجعه إلى بدائيته الأولى، البدائية فيها متعة أن ترى البدائي يقتل أخاه على لقمة خبز، أو الاستيلاء على أرض لا تنجب إلا الرمال والرماد، أو يقاتله من أجل مصلحة ميتة»[2]. هي ذي القوة الناعمة التي باتت تسيطر على مصير الأمم المستضعفة، والهويات التليدة، سواء بفعل مظنة «نظرية المؤامرة»، أم بفعل «قابلية الاستعمار» في منظور مالك بن نبي، وهما النظريتان اللتان خلقتا شخصيات مهزومة ـ منذ نعومة أظافرها. في تكوينها، الذي جعل منها طيورا خشبية غير قابلة للتحليق، حتى أصبحت أجساما يغلب عليها الرعونة، والطيش، وموجهة ضد كينونتها، وقيمها الذاتية بشكل محكم، ومدبر لها، من دون إدراك ما يلفها من ضلال.

وبلا شك أن هناك تناظرًا لهذا الفتك بين السبب والمسبب، بين الفعل ورد الفعل، لثقافة العنف، وكلاهما أصبح يؤدي بحسب مقولة هراقليس (العيش ميتًا والموت حيًا)، بخاصة عندما لا يتمكن نظام ما حل مشكلات يصادفها، فليس عليه إلا أن يموت، أو –وهذا ما يحصل– أن يخلق ميتًا.[3]

وفي السرد الذي تطرحه الشخصيات، تبدو الصورة معنية بالزمان والمكان ومصير الإنسان العربي/ الإسلامي، ورسمها بأدق التفاصيل، سواء من حيث الوقائع التاريخية، أو من حيث الرؤى المخطط لها بإحكام؛ لتجسيد فعل الهدم، والدمار، وإراقة الدماء بكل السبل المتاحة. وقد جعلت هذه الشخصيات دورها الأساس قائما على رعاية شخصية (آدم)، توجيها، وحماية، وتنفيذا لفعل الإجرام المدبر له، كما جاء على لسان إحدى الشخصيات (ستيفينسن) بوصفها عاملاً مساعدًا ـ بحسب مفهوم البرنامج السردي لوظيفة (آدم): «هنا ينتهي طريقنا المشترك يا آدم، مهمتنا هذا مداها الأقصى. حمايتك.. ووضعك تحت تصرف الجهات المعنية التي تواصل معك العمل»[4]. وعلى الرغم من تنوع مهام الشخصيات الحريصة على رعاية (آدم)، فإنها تتفق على معنى موحَّد، بين ما هو مخابراتي، ولوجيستي، وسياسي، وعسكري، وثقافي، رغبة في صناعة ثقافة جديدة لـ (آرابيا) في مسمى شخصية (آدم)، وما يمكن أن تسبغه هذه الثقافة من معنى مشترك بين ثقافات الشعوب من رسم صورة لرماد الواقع بفعل الدمار الذي تقوم به الهوية الوطنية، باسم الدين.

(1) المصدر نفسه، 254.
(2) المصدر نفسه، 439
(3) ينظر، جان بودريان، عنف العالم، ص 69، 87
(4) حكاية العربي الأخير، ص 105

ومن هنا يتبدى بوضوح صراع الحضارات، ويظل هذا الصراع قائمًا بين الأنا والآخر لتأكيد المفارقة الغيرية، سواء بما تكون به الذات الوطنية في جوهر مبادئها، أو بما هي عليه في صورة (التابع) بمفهوم سبيفاك Spivak, Gayatri؛ لتحقيق جوهر مبادئ الآخر، وتعميق الوعي المتعالي فيه، بمفهوم ديكارت René Descartes، وفي ضوء ذلك فإن صورة (آدم) لا تطرح نفسها واعية بذاتها، ولا هي واعية بمبادئها، نتيجة الواقع المهترئ الذي تربت فيه، وإنما تُفرَض عليها المبادرات بتدبير محكم؛ لتنتهي في وجود الآخر بتقديم حلول لصراعات محتدمة، خدمة لنسق ثقافة الدمار، وهي الصورة المخطط لها في واقع تضلله مفاهيم جوفاء من مضامينها الجوهرية، كالديمقراطية، والعدالة، والحرية، والمساواة، والمنظمات الحقوقية، والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، والوكالات المساعدة، والمفوضيات، والرابطات الإنسانية مثل الرابطة الافتراضية في سرد الرواية (Lidrafic) التي رسمتها لمساعدة (آدم) مجازًا، ووصفها بالإنجاز العظيم في حق آرابيا، على حد قوله: « جيد أن توجد هذه الرابطة. سكان آرابيا لم يكن لهم حتى حظ في تجميعهم وحمايتهم مثل الهنود الحمر. يتآكلون في عزلة الرمل، ويأكل بعضهم بعضا، والمنتصر يموت عطشا وجوعا في أرض امتصت من كل شيء، ولم تعد تنجب إلا الموت»[1]، ولولا هذه الرابطة ما كان لمن تبقى من سكان آرابيا أن يكون له وجود(!..).

وإذا كانت مساءلة (آدم) واردة من منظور نسق الضمير الجمعي الثقافي؛ لما وُضع فيه، وخُصص لوظيفته، فإن الأفق الأنطولوجي لأنماط فصيلة (آدم) تستدعي مساءلة الواقع الذي دفع بهذه الشخصية إلى التعفُّر في مثل هذا الوضع الذي من شأنه أن يهدم كينونة الذات في مصيرها؛ لأن الضوابط التي يكون بها المرء منتميا لهويته تنفي الارتباط بالآخر - على هذا النحو - إلا في حدود ما تمليه المثاقفة، والمصالح المتبادلة، ومن ثم فإن الذات الواعية لا تملك قيمتها إلا من فصيلتها، وبتفاعلها مع مبادئها، ومقوماتها الحضارية، وضمن آفاق معيارية لا تسمح بالارتماء في كنف الآخر المستبد، وهي وضعية لها من المسئولية ما يمكن أن تُخضع المتمرد للمساءلة الأخلاقية، ضمن حدود أنظمة المعيار الضابط للانتماء الحضاري؛ لأن الذات لا تدرك ذاتها إلا في إطار شروط مقومات الضمير الجمعي الذي يمنحه الاعتراف بمعنى (القيمة)، وهو «ما يعني أن الـ «أنا» لا تقدم فيها الاعتراف من مواردها الخاصة. في الواقع يبدو أن الـ «أنا» تكون خاضعة للقاعدة في اللحظة التي تقدم بها مثل هذه المنحة، بحيث تصبح الـ «أنا» وسيلة لفاعلية ذاتية تباشرها القاعدة ؛ لهذا يبدو أن القاعدة تستخدم الـ «أنا» على نحو ثابت بالدرجة نفسها التي تحاول بها الـ «أنا « أن تستخدم القاعدة»[2]، وما عدا ذلك تصبح الذات طريدة سائغة، ولا تستطيع أن تنجو من وظيفة (التابع) المنصهر في ذات الآخر، والمتماثل مع وعيه الثقافي، والمرتهن بالمطالب المشبوهة في حقه.

وفي هذه الحال تكون الذات معترفا بها من الآخر ظاهريا، مقيتة منه طَوِيَّةً، وهي معادلة تحكمها المصلحة من طرف واحد، سبق أن حددها هيجل Friedrich Hegel في «تملك الذات من الآخر»، كما تملكت الكولونيالية الجديدة المسمى في شخص (آدم) الذي يراد له أن يكون في مستنقع المكر المتلاعب به، وفي أيدي الظلامية: «أنت لم تعد ملكا لنفسك يا آدم، كل من في مكانتك هو ليس ملكا لنفسه»[3]. فما كان منه - ذات مرة - إلا أن حاول أن يكفر عن ذنبه بتبرئته مما يحدث، وإشعارنا بأنه كان ضحية كل الجهات، بخاصة حين وجد

(1) حكاية العربي الأخير، 52،53.

(2) جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2014، ص70.

(3) حكاية العربي الأخير، ص 147

نفسه على حافة عالم آرابيا الذي مات كليًّا، ولم يبق إلا علاماته القليلة، وتمزقاته، وحروبه، وعالم غربي في عز انهياراته بسبب أزماته البنيوية، وإسلام فقد كل مبرراته الإنسانية منذ أن استلمه التنظيم؟ كيف يمكنني أن أكون وسط هذه الحواف. حينها رد عليه ستيفينتس: «ليس هذا هو المهم. في النهاية نحن نحتاجك ولا نريدك أن تسقط»[1].

وعبر المتواليات السردية نجد العوامل المساعدة وافرة لتمكين آدم من أداء مهمته على الوجه المطلوب، ضمن علاقات تحكمها مصلحة من كل الجهات المتعاملة معه، يمكن تحديد أهمها في هذه العلاقات ؛ فهي إما:

- علاقة رغبة في الهدم (صورة السرد اللوجيستي، موزعة في كل مفاصل الأحداث)
- علاقة رغبة في المساعدة المضللة (رابطة Lidrafic للدفاع عن حقوق الإنسان، ص52، ومواضع أخرى عديدة)
- علاقة المساعدة؛ للإيقاع به في مكائد (من شخصيات مخابراتية، موزع في كل مفاصل الأحداث)
- علاقة تيهان بمساعدة لوجيستية متخفية (أزاريا اليد الخفية التي تحرك الآخر/ نسبة إلى إسرائيل، موزع في كل مفاصل الأحداث)
- علاقة صراع بين العامل المساعد والعامل المعاكس (في شخصية الكوربو. إرهابي معروف خريج أمريكا ص 24)
- علاقة عديمة الجدوى (من القلعة التي لم تعد آمنة، كما في صحراء التتار ص273، 343)
- علاقة التصفية (من الإرهاب، ص 306، 346،347،348، وفي مواضع عديدة)
- علاقة إشفاق (من الحضارة الآسيوية على آدم، رمز الحضارة العربية الإسلامية)
- علاقة مع سلالة الذئاب (في صورة الرماد الميت الحي، ص 383)
- علاقة فصامية بجذرها الحيواني (في وصف ذاته المنهارة: «في شيء يشبه الذئب، يمكنني أن أكتفي باللا مكان»، ص 149)
- علاقة القفر (أنا نفسي لا أعرف أية وجهة أسلك، 362)
- علاقة الخوف من الموت (لولا تدخل وسائلنا في الوقت المناسب لانتهى الحديث عنك اليوم، ص 271)

وليس في هذه العلاقات ما يعارض مسيرة آدم إلا علاقة الخوف، ما يعني أن معظم هذه العلاقات تفتقر إلى الصراع السردي بين العامل المساعد والعامل المعارض، في مقابل تعزيز الرغبة بين «العامل الذات والعامل الموضوع» في صورة التحفيز؛ أي تحفيز (آدم) على إنجاز المهمة التي أوكلت إليه، ولعل في انتفاء شروط العامل المعارض في العملية السردية ما يشير إلى افتقاد الذات أعز ما تملك من مواقف ومبادرات سديدة، بالإضافة إلى افتقادها مرجعية القيمة المعيارية، ومعناه في الوقت ذاته ارتهانها بالآخر الذي لم يجد من يضاده، ما جعل إعاقته أمرًا مستحيلا في ظل الخنوع التام للذات الآسنة، على حد قول آدم: «لا أعرف أية وجهة أسلك؟ أرض أمي وأبي وأجدادي لم تعد موجودة، وانقسمت إلى شمال وجنوب، والشمال إلى خمس دول، والجنوب إلى أربعة، وفي الخمسة والأربعة، قبائل ومجموعات غريبة تتقاتل على التراب، والمعدن، ووجهة الرياح.»[2] في إشارة إلى ضياع بوصلة الاتجاه الذي يسلكه من دون سند، أو رعاية آمنة.

(1) ينظر، نفسه، ص 102

(2) حكاية العربي الأخير، ص 362،363.

لعل هذه الاهتزازات المتصدِّعة، في مثل هذه العلاقات، هي في الواقع سليلة السرديات الكبرى في الثقافة العربية، منذ أمد بعيد، ولكنها - على الرغم من ذلك - لم تكن بهذا المستوى من الوضاعة، التي ابتعدت عن فكرة التنوير؛ لتحقيق ما نادى به الإصلاحيون من الآمال، كنا نظن أنها أكيدة المنال، بدءًا من الوحدة إلى البناء والتشييد. وإذا كانت الذات الوطنية حالمة بتحقيق ذلك، وأنها دائما تسعى إلى أطوار التشكيل لتمكين الهوية من الثبات للمواجهة، والتحفيز على فعل الإنجاز، فإنها مع الجيل الجديد أصبحت مرتهنة بالفشل في إدارة المطلوب للوصول إلى المبتغى، ومصفَّدة بإدارة الآخر، «هذا الآخر الذي يقبع داخل الأنا، إنه الآخر الذي يستطيع المرء معرفته، فقط من المكان الذي تقف فيه الأنا. وهذه الأنا (الذات) كأنها متضمنة في النظرة المفترسة للآخر، وهي الفكرة التي تدمر الحدود بين الداخل والخارج، بين المندرج داخل الحدود، والخارج عنها»[1]. ومن وجوه ذلك الارتهان، المهان، شخصية آدم الذي فرَّط في وحدة الذات وصحوتها قبل التفريط في الذاكرة الجمعية، وإنكارها.

وإذا كان الوعي يحدده قطبان أساسيان هما وعي الذات ووعي الوجود، فإن آدم لم يدركهما، ولم يعقِلهما، ولم يتحصن بهما؛ للوصول إلى الهدف المنشود، ومن المفترض أن الذات عندما تصل إلى هذا الحد من الارتهان بالآخر تسقط - حتما - في التذلل والإذعان، على النحو الذي خططه الآخر لوظيفة التابع، من منظور أنه شخصية مهمة لا يمكن التفريط فيها، على نحو ما قاله الآخر في حقه الدَّعِيِّ: «حافظنا عليك؛ لأننا رأينا أنك تتعلم بسرعة، وأنك شخصية كبيرة، ومهمة في مشروعنا الإنساني الكبير... نحن اليوم من يصنع التاريخ الجديد... ما معنى اليوم ألفاظ رنانة كحقوق، عدالة، مواطن، حرية، حق، نبل، وفاء، سخاء، حقد... مجرد خردة. العالم اليوم للأقوى يا عزيزي... من ليس معنا ليس علينا فقط، يجب أن يمحى. إنسانيون إلى أقصى الحدود، لكننا نحارب العواطف الفارغة، فهي مورِّطة، قوانيننا في قلعة أميروبا صارمة»[2]. إن هذا يجعلنا واعين أن الآخر لا يقبل الموقف المعادي للقرار الملزِم من القوى العظمى، التي تتبع أفكارها من حب التملك، وفرض التسلط؛ لأن أية إمكانية للتباين والرغبة في الاختلاف، لا ينبغي أن تكون إلا بإرادته، بوصفه النموذج الأمثل؛ لذا يشترط على الذات الوطنية، وعلى أفكار الهامش، أن تتماهى في مشروع النظام العالمي الجديد، «في هذا العالم الذي يحكمه الأقوى، هو من يحدد صلاحية الشيء من عدمها، ما دورنا نحن؟ ستقول لي إن العالمي كان دائما هكذا، يحكمه دوما المنطق الإمبراطوري»[3].

وإذا صحت هذه القراءة لرسم المنظومة العالمية بمفهومها الكولونيالي الجديد بهذا الشكل، فإن إرادة القوة تمثل الحل الأمثل لها - كما في نظر نيتشه Friedrich Nietzsche - وأنها الأقدر على أن تكون -فقط، مع العرق الآري- بحسب سياق الإيدولوجية النازية التي تقوم على أفضلية العقل الجرماني، ومن قَبلُ ما صرح به الفيلسوف رينان Ernest Renan من خلال ترسخ النزعة العنصرية التي تنادي بتفضيل الجنس الآري على الجنس السامي، بوصفه - في نظرهم - جيل بناء الفشل. والحال أننا قد نعطي تعلّة لمثل هذه المواقف، بخاصة في المدة الأخيرة من بداية الألفية الثالثة التي تخلينا فيها عن أي مشرع يمكن أن يحقق هويتنا، أو أهدافنا، أو رؤيتنا للوجود، وهو ما أثبتته الأنظمة الشعبوية، بحسب مفهوم (تيم هوويين)،

(1) أنطوني كينج، وآخرون، الثقافة العولمة والنظام العالمي، ترجمة، شهرت العالم، وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001، ص79

(2) حكاية العربي الأخير، ص 202، 203.

(3) المصدر نفسه، ص 345

و(إدوارد شيلز)، بعد أن تحولت إلى أنظمة استبدادية، رعناء في تخطيطها، خرقاء في رؤيتها الاستراتيجية، بارعة في إفسادها المكاسب، بخاصة الدكتاتوريات العربية التي «نفذت ما كان عليها تنفيذه ويوم صدقت أن لها دولة، وفي أول هزة أعيدت إلى بدائيتها الأولى. نحن في عالم شديد الغرابة، عندما قام العرب بثورتهم كبقية الشعوب قتلوا أنفسهم أولا، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم، وبعدها خلقوا فراغًا ظنوه هو الديمقراطية، ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم، مجموعات يقتلها العطش والصحاري والثعابين، كالعمران الذي شيد على الرمال، وفي ثانية واحدة انهار كل شيء»[1]. وهذا يجعل الآخر على وعي تام بأن الذات لا تنتهي إلى قصد تبغيه، أو رؤية تراها، وأنها لا تقبل بما دون (العصا والجزرة)، العصا في صورة الإنذار، والوعيد، والبطش، والجبروت، والتخويف؛ والجزرة في صورة العطية الغثَّة؛ لمن هو محل الطاعة والانقياد. وليس غريبا أن تربط الجزرة بالأكلة المفضلة للأرانب؛ لتذللها وانصياعها حتى بات يضرب بها المثل في الجبن، وفي حوار آدم مع شخصية (مايجر) ما يوضح صورة هذه التبعية المذعنة: «انظر يا مايجر، أنتم عسكر، ولكم خياراتكم وحساباتكم. طبعا لا يمكنني إلا تقديرها. وجودكم في هذه القلعة له ما يبرره بكل تأكيد. ولكم مؤسسة تحميكم من كل التجاوزات، أنا ليس لدي هذا للأسف. مجرد إلكترون ضيع مساره، وعليه أن يبحث عن طريقه الأسلم، ويعود باتجاهه. لهذا لا تستغرب إذا قلت لك: لقد كنت سعيدًا بالعمل معكم، لكن كل حلمي أن أخرج من هذا المكان الذي اعتبر فيه غيست(Guest؛ أي ضيف)»[2]، وكونه ضيفا في قلعته (آرابيا) يعني انصياعه لأوامر الآخر، حتى وهو في موطنه، وامتثاله لإكراهاته، وهي الصورة الأحط لمن يدير ما تدبره إدارة التوحش. لعبة المَحْق الفتَّاكة

بعد أن عزونا امتثال (آدم) إلى الإذعان بفعل الاستسلام والهوان، عُتوًّا في حق هويته؛ فإن اختياره هذا السبيل يجعلنا نؤكد أن شخصيته الصَّلفة تمادت في صورة الارتهان بالآخر إلى حَدِّ التيه المشفوع بالنزق والرعونة، خاصة بعد أن بات يُوظَّف باستحكام كالآلة في أثناء استخدام سبل التحكم فيها، نظير ما يقدمه الآخر من تهيئة الأجواء وتوفير الوسائل، وتعزيز الإقدام، وتمويه المواقف، ونفخ العزيمة، والتضليل بالهمَّة، حتى أصبح حَبْلا مفتولاً في يد الآخر، ولعبةَ مُطاردة، يحركه كيفما شاء، وأنَّى شاء، طالما أحاطت به هذه المواصفات الضالة، والمخاتِلة بكل وسائل الغواية؛ إذ بلغ به الأمر إلى أقصى حدود الخطيئة بالشروع في محاولة ارتكاب أفظع الجرائم المثيرة لحَنْق هويته، وما قد يصيب الواقع من أذى في حق الأبرياء، من خلال ما دُبِّر له من تصميم بالمقاس؛ لأعمال شنيعة، وبخطط محكمة التنفيذ، في ضوء ما قُدّم له من منزلة، رأى فيها أنه جدير بها، وأن ما ناله من حظوة خليقة بمستواه التكويني الذي تلقاه في مؤسسات الآخر، التي بعثت فيه صورة الخَيُلاء، بوصفه عالِما نوويًا، مرتضيًا بهذه الزلفى، وهو يعي في سريرته أنه يتطاول على ذاته بما ليس فيه من كرامة، وعزة نفس.

وأن من الأهمية بمكان أن شخصية من هذا النوع لا يمكن إلا أن تكون طيِّعة في يد الآخر، وتخضع لإملاءاته، وأنْ ليس بإمكان أية حماية ذاتية أن تَعدِله عن مواقفه، أو تردّه إلى سواء السبيل، أو أن تحاول إقناعه بالتخلي عن مواقفه الهدامة. ولعل صورة (آدم) في ظل التوصيف الذي قدمته الرؤية السردية لـ «حكاية العربي الأخير» تجسد صورة الواقع العربي المعتل بما يتعرض له من مخاطر، هو طرف أساس فيها، وهي أيضا الصورة المظللة لوجود الآخر، بوصفه المضلل لهذا الواقع الضَّنِيِّ، المتوقَّع اندثاره.

(1) المصدر نفسه، 343.
(2) المصدر نفسه، ص 295.

وحتى يكون الوضع على هذه الحال، استثمر هذا الآخر شخصيات من هذا النوع- وما أكثرها على هرم الأنظمة الشعبوية – علة وجه التحديد، وقد أفضى ذلك إلى تعزيز عطية (التابع) الغثَّة، رغبة في تمكين الحماية القادرة على الدفاع عن مكتسبات الآخر في المكان المناسب، وضمانا لاستقرار وجوده من خلال توظيف الذات المحلية كقوة صلبة، توضع في الواجهة؛ لأنها تمتاز بالشدة والقساوة، ومطيعة في الآن ذاته لتنفيذ الأوامر حين يطلب منها، على نحو ما دار من حوار بين (آدم) وشخصية (سميث)، الموجِّه الخفي لفعل المؤامرات لكل ما يقع في (آرابيا)، حين وصف آدم على أنه الباحث النووي الفذُّ، وصاحب مشروع صنع قنبلة جيب فتاكة في الزمان المحدد، والمكان المعين والمحصور، فقال له: طلبتك لغرض واضح يا آد. إذا أردت أن تواصل جهودك هنا، فالمخبر تحت تصرفك، فقد تم نقل كل ما نحتاج إليه في عملنا هنا المخبري؛ لتطوير جهود قنبلة الجيب، ولك أن تبقى بطبيعة الحال في مكانك محميا».[1]

إن اشتغال سرد «حكاية العربي الأخير» على شخصية (آدم) بهذا المستوى من مكونات التخلي عن واجب الضمير، يجعلنا نقر بأن قيمتها الإنسانية محكومة بالإعراض عن الدور الثقافي، والانكفاف عن القيم الحضارية، كما يمكن النظر إليها على أنها شخصية نموذجية لفساد المؤسسة في الواقع العربي، ومن ثم فهي تمثل الشَّامَةَ للمرجعية الواهية، والوصمةَ للقيم الأصيلة، كما يحيل هذا النوع من الشخصيات إلى كشف ما كان محجوبا في الكثير من المواقف، باتت مألوفة في عوالم محددة، ضمن نصوص الثقافة ومنتجات التاريخ (الشخصي والجماعي)، اعتقادا منا أن مثل هذه الشخصية تعيش الذاكرة بوصفها جزءًا من زمنية قابلة للتحديد والفصل والعزل، كما هي كل شخصيات التاريخ، أو شخصيات الواقع الاجتماعية الضالة، ولهذا السبب سيكون مطلوبًا من القارئ في حالات التلقي الاستعانة بكل المعارف الخاصة بهذه الكائنات التي تعيش في الذاكرة في شكل أحكام، أو مآسٍ، أو مواقف[2] شائنة، قد لا تستحق من الضمير الحي إلا الاستنكار.

إن الآخر المتمثل في الغرب، حين تجبَّر، أصبح يعيش «سيادة مشروع اللاعقل» على حد تعبير فوكو، على خلاف ما عاشته الذات المتمثلة في صورة الحضارة العربية الإسلامية حين تواضعت سلميا فكسبت الآخر، وهو فرق رحيب، يعكس صراعًا حضاريًّا قائمًا على التباين بين ثقافتين لإيديولوجيتين مختلفتين، ومن شأن هذا التباين أن يدفعنا إلى التساؤل عن مبررات تفكيك «الذات العقلانية» في ظل توالي الأفكار الكولونيالية الآسرة، والمدمرة، باستلاب وعينا، وتفكيك علاقاتنا المترابطة إلى الحد الذي لا يمكن للعقل أن يقبله، بعد أن اكتنهت عمق إرادتنا، وفَطَرت ضمائرنا، وفسخت مفاصل وحدتنا، ثقافيا وأنطولوجيا، وبعد أن أغفلنا استثمار العقل التواصلي، بوصفه أحد عناصر مكونات التقارب بالحوار مع الآخر، الذي غلب عليه طابع العقل الأداتي المبني على بث فكرة التفتيت والشهوة التدميرية، من دون مراعاة القيم الإنسانية؛ الأمر الذي أوصله إلى الانتشاء بانتشار فكرة العقل المدمر، من خلال الرغبة في إعادة تشكيل واقع جديد، بعد هدمه إلى أجزاء، ويستحيل تماسكه بمرجعيته الثقافية، وأن ذلك لن يتحقق إلا بفعل الخراب الشامل للمكونات الحضارية المتماسكة، على النحو الذي نراه مع بداية الألفية الثالثة، وبخاصة مع الدمار الممنهج، بدءًا من غزو العراق إلى ما يقع اليوم في سوريا «والحبل على الجرار»، مع كل من تشامخ على الكولونيالية الجديدة، التي تجاوز منظورها فعل عنف الإرهاب غريزة حب التملك بالسيطرة إلى غريزة حب التدمير بالمحو امتثالًا لفرض السلطة بكل السبل، حتى لو استوجب الأمر الشروع في الإرهاب

(1) حكاية العربي الأخير، ص 144.

(2) ينظر، قيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة، سعيد بنكراد، دار الحوار، ط1، 2013، ص14، مقدمة المترجم.

بالتفويض؛ لامتلاك إرادة ما تَبَقَّى من الخصم، أو كما قال ماكس فيبر Max Weber في أثناء تعرضه لتمكين إرادة السلطة، حينها يكون الحظ أوفر من خلال «فرض إرادتي رغم مقاومة الآخرين لها» أو بحسب تعبير كلاوزيفتش Clausewitz بأن «فعل العنف يهدف إلى إجبار الخصم على فعل ما أريد»[1]

تروي الرواية في سردها المستفيض صراع الكولونيالية الجديدة مع الحضارة العربية الإسلامية، بوصفها حضارة متهالكة ينبغي الاستيلاء على خيراتها، غير أن هذا الصراع لم يعد كما كان عليه الوضع مستساغًا في منهجيات الاستعمار التقليدي، من خلال استعمال العنف بالمواجهة المباشرة بين الذات والآخر، بل ذهب مع الكولونيالية الجديدة إلى أبعد مما يمكن أن يقبله الضمير الواعي بعد استغلال الضمير الواهي، وهو ما يتبدى واضحًا في سرد «حكاية العربي الأخير» في تفصيلات مفاصل العنف الدقيقة، باستبدال عنف الذات للذات بعنف الآخر للذات، أو الذات للآخر، وبين هذا وذاك يكون الخاسر هو تحطيم الذات الوطنية ماديا ومعنويا، وهذا من شأنه أن يبعد الخطر عن دول الكولونيالية الجديدة، وتسويقه إلى الدول المستضعفة، بخاصة ذات التوجه العَقَدي التي يمكن وصفها بـ (كيد الغرب)، أو بحسب مقولة ماركس Karl Marx: (أفيون الشعوب)

لذا ينبغي - في نظر الكولونيالية الجديدة - زعزعة سلطة الذات الوطنية، وتمزيق مفاصلها داخليًّا من أجل فقد السلطة هيبتها، وخلق ارتجاجات أمنية، واضطرابات اجتماعية، حتى يصبح كيد الذات لذاتها مؤثرًا ومغريًا للانتقام، حينئذ يتحول العنف من وسيلة لمحاربة السلطة بعدم الوفاء للمطالب الشرعية، إلى غاية لتشجيع هدم السلطة بمقوماتها الحضارية، ولن يكون ذلك محققًا إلا بالتدبير لفعل التفتيت الداخلي للذات من ذاتها، على الرغم مما يتوافر لديها من خيرات الغضارة والنضارة، والنعيم والرفاهية، على أراضيها، في جميع الأنظمة الشعبوية؛ لذا تستحق استغلالها بوسائل الإرهاب الفتاكة، كما في وصف شخصية (ليتل بروز): «هناك أمم لا تملك قابلية الاستمرار في الزمن، فتقضي على نفسها بنفسها.. ماذا كان ينقص سكان آرابيا؟ الرخاء، والنفط، والذهب، واليورانيوم، وخيرات الأرض من حديد، وفوسفات، وذهب، وسواحل بعرض السماء، فراحوا يخوضون كل الحروب الخاسرة»[2].

هي ذي قلعة (آرابيا) وفق توصيف الواقع الذي رصدته الرواية بعمق هشاشة بيت العنكبوت، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[3] وكما أن عائلة العنكبوت تأكل بعضها بعضا في أثناء فتل أنثى العنكبوت خيوطها، فإن ضعف قلعة (آرابيا) لا يقل هونًا من هذه الصورة من حيث تفكيك الترابط الاجتماعي، وتمزيق التعاضد الإنساني، وتشتيت التكاتف الأخوي، دفعًا لواجب الحماية من الآخر، ولكن هيهات بين مطلب الحصانة والاستجابة للخنوع بالمستدَل، وفي حوار (الميجر توني) مع (آدم) ما يفي برصد صورة الواقع العربي، وهما على متن طائرة للرحيل من مكان ما في عمق صحراء قلعة (آرابيا)، هربًا من خطر الإرهاب: « انظر يا آدم، ماذا ترى تحت؟ .. تلك قبائل متعدد تتجه نحو نقطة الماء. تسمي نفسها باسم لوطا[4]؛ أي اتحاد قبائل آرابيا، ستتقاتل وتفني بعضها البعض، كلما وقعت المعارك. لولا حراسة وحداتنا لأفنت بعضها البعض... ها هم اليوم حتى التمر لا يجدونه، قطرة ماء يقطعون بسببها كل مخاطر الدنيا لكي يحصلوا على ما يشربونه»[5]

(1) حنا أرندت، في العنف، ترجمة، إبراهيم العريس، دار الساقي، ط1، 1992، ص 32.

(2) حكاية العربي الأخير، ص 92.93.

(3) العنكبوت 41.

(4) UTA. Union des Tribus Arabe

(5) حكاية العربي الأخير، ص 452.

ومتى ما هانت هيبة الهوية، ازداد التهتك، ومالت الذات عن جادة الصواب، وعمَّ الخضوع والخنوع، ومتى ما كان ذلك كذلك خارت الذات، ووقعت في مخالب الآخر، يفعل بها ما يشاء، وكيفما شاء؛ لما لديها من قابلية الخضوع بفعل الوهن الذي أصابها، بحسب أفكار مالك بن نبي، لذلك يجد الآخر ضالته في التسلل إلى الذات الخئونة، وهو ما يبدو لنا جليا مع شخصية (آدم)، الضمير الجمعي للشخصية العربية الواهية، التي يمكن النظر إليها على أنها شخصية معتَّمة، منحت هيبتها، ومقدرتها للآخر غير المتطابق مع معايير منجزات هوية الذات الجمعية؛ ونتيجة لذلك باتت تسهم في بَطْرِ الهوية بالامتثال للمُحُول، كما تسرده هذه الصورة، حين كان آدم يستمع إلى (سميث)، الذي أدهشه فيما أعطاه من معلومات مفيدة لصنع القنبلة ذات المفعول المؤثر في الأمكنة المحدودة، والأزمنة المناسبة، حماية له، كما أُقنِع به من الآخر، فكان رده بعد التشجيع المتظاهر، والتعظيم من قدْره الدعيِّ:

– أقدرك كثيرا يا سميث، وأثق فيك بشكل أعمى، لهذا وضعتني أمام إشكال كبير، أشكرك بحب على وفائك.. وعلى أنك أخرجتني من عزلة العدمية، والتقوقع داخل الذاكرة، صحيح أننا لا نعيد خلق العالم، لكننا نغيره، ويغيرنا وفق معاييره، والعصر الذي نعيشه... كيف يمكن أن نشتغل في ظل الكراهية؟ انظر إلى الشعار البائس عند مدخل القلعة: العربي الجيد هو العربي الميت»[1]. وآدم في مثل هذه الصورة يحاول أن يثبت وجوده بكل بجدارة، غير أن أيَّة إمكانية لإثبات وجود الذات خارج نطاق السرديات الكبرى لها، يكون مآلها الفشل بالمساهمة في المكون الحضاري بالتماثل، وحينذاك تمنح الذاتُ الآخرَ صفات «النمطية السلبية» التي تتماهى مع ما يطلبه الآخر من إملاءات إلزامية، حينذاك يتحول انصهار الذات مع ذاتها إلى انصهارها مع الآخر، وبهذا المعنى أيضا تتحول من إمكانية أداء الواجب الأخلاقي إلى الامتثال لواجب التابع للاستبداد بمفهوم «سبيفاك Spivak»، ومن الالتزام بصون الهوية إلى النكْث لها، والاستجابة لمطالب الآخر، والسهر على رعاية مصالحه.

ومن الطبيعي أن تنظر الكولونيالية الجديدة إلى مصالحها مع من يخدمها، وأن تنظر إلى كل من يخالفها الرأي والمصلحة على أنه عدو ينبغي محاربته بكل ما يؤتى من حذر، ليس أقله من السعي إلى توظيف الذات المحلية بوصفها ذاتا طيعة، وغير مكلفة؛ لقلب الموازين، بما يتناسب مع ما تميل إليه «الرواية الحديثة في قلب العلاقة بين ما هو (عادي)، وما هو (متسام وفوق العاديّ)[2]، يُشكَّل من أجل ممارسة الإرهاب، (وانتشاره) في الميدان من خلال نظام تجهيز شامل من تقديم دولة عظمى لحمايتها، ومن ثم توجيهه من أجل القيام بهجمات أهداف صغيرة وناعمة[3]، ولضمان ذلك لابد من حماية لوجيستية وأمنية شديدة الحساسية، ومتكاملة الدقة، حتى تؤدي الذات دورها على الوجه المتوخى باختلال بؤرة عالمها الخاص، أولا وأخيرا، وهو ما يشير إلى منطق الاستعباد والإذلال، ناهيك عن الإسهام في تدمير الانتماء للمكان والمكانة، بعد أن انخرط (آدم) في عالم مظلم، يسعى إلى تدمير البشرية، قِيدَ به إلى عالم الخراب حيث الهلاك، وغُرِّر به حَيْفًا بوضعه في واجهة الأحداث العالمية، بخاصة العلمية منها التي أظهرته على أنه مرشح لجائزة نوبل للفيزياء، نظير إنجازاته العظيمة في المجال النووي، في دلالة تتضمن الرفع من قدر من يخدم الآخر بإخلاص، إنه الباحث النووي الكبير (آدم) الذي يستحق بجدارة

(1) المصدر نفسه، ص146.

(2) ينظر، جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ص126.

(3) ينظر، نعوم تشومسكي، ثقافة الإرهاب، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، العبيكان للنشر، ص58.

الفوز بهذه الجائـزة بعد صنعه قنبلة الجيب. وحين فكر مليًّـا في إمكانيـة التراجـع عن الفكـرة، أرشدتـه العين الساهـرة علـى حمايتـه إلى الخوض في المضمـار، فما كان منـه إلا أن ناجـى نفسـه: «لكن قنبلـة بهذا الحجم الصغـير لا أحد يستطيع أن يتخيل نتائجها الوخيمة»[1]. غـير أن الفكرة أخذت تشجيعًا وافرًا من قبل الآخر حتى من المنظمات الدولية الراعيـة لحقوق الإنسان التي ورد ذكرهـا في الرواية في أسماء بعينهـا بمسميات دالة على العَمايـة، والتواري خلف الإيقاع به، كما في اسم (أمايا) التـي نصحته بالإقدام في خوض المضمار على أن يأخذ الحيطة والحذر مما يقوم به، فرد عليها بأنه شارف على «الانتهاء من قنبلة الجيب التي لن تستعمل إلا في الحدود الضيقـة، تفاديًـا لاستعمـال القنابل الكبـيرة ...وضعنا عليهـا ضوابـط وضغوطًا، وهذا كله يجعـل منها سلاحًا ردعيًّا أكثر منه سلاحًا نوويًّا»[2].

وفي ضـوء ذلـك، هل هناك مـن استعبـاد أكثر مما وضـع فيـه آدم نفسـه؛ وإذ ذاك حين تفقـد الشخصية ـ من هذا النـوع ـ استقلالية مواقفهـا السيادية، تُستعبَد، وتفرض عليهـا سـوءات التسلـط مـن الآخـر، الدَّعِيِّ للمثالية، وبتبشير نموذج تصدير ثقافة العدل، والمساواة، والحرية، وغيرها من المصطلحات الجوفاء التي لم تجلب للـذات غير التبعية بالولاء لـه، سواء أكان ذلك رعبًا، أم طوعًا، خدمة لظاهرة جنـون العظمة التي تلازم الآخر، «حيـث تظهـر الديمقراطيـة على أنهـا تتناسـب تماما مـع مصالحه، فعليـه أن يروج لها، أمـا عندما تتعارض الديموقراطيـة مع مصالح أخرى مهمـة، فيجب التقليل من أهميتها أو تجاهلهـا بالكامل»[3]. وحين تفقد الذات جوهـر إرادتها بهذا الشكل تفقـد معها جوهر الندِّية مع الآخـر، أو إمكانية أن تكـون نظيرًا له، أو علـى الأقل أن تكـون شبيهـا به؛» لأن قـدرة الذات هذه حـين تنظر إلى نفسها كموضوع (الأنـا) دون الكف عن كونها (أنا) هي التي تتيح لها الاضطلاع بوجودها الذاتي والموضوعي في الوقت نفسه، وأن تعالج مشكلتها الشخصية، موضوعيا، كمـا لو كانت مشكلـة مرضية، وهذا مـا يمنحها القدرة على البقاء في العالم.»[4]

لقد كان تفـرد شخصية (آدم) ماثـلا في الاستئثار الموجـه بمـا لا يمكـن التملص منـه إلزاما، حـين وُضع ـ إكراهًـا أو طوعًـا ـ خدمـة لمصالـح الآخر، ولعـل ما زاد مـن هذا التفرد عنـوة هو غياب ما يطلـق عليه (العامل المعارض) بحسـب مفهـوم النمـوذج العاملـي في بنيته العميقة للسـرد، وإذا كان الروائي قد تعمد هذا التغييب القسـري للعامل المعارض، فذلك يعني مدى ميل الرواية الحديثـة إلى استبعاده عمدا، نظرا إلى أنه لم يعد يشكل الـدور الفاعل في معضلـة الحياة اليومية، بعـد أن أزيح عـن كافة الأدوار المتعلقة بمواجهة الآخر، وفي ضوء ذلك غابت الحقيقـة التي ارتهنت بصكـوك الغفران، وشراء الذمم، وبمـواراة الرأي المضاد، ومن ثـمَّ كانت العوامل الفاعلة في الرواية تتمثل في:

- العامل الذات : وهو شخصية (آدم)، الذي يقوم بعمل الإذعان للحصـول على مرغوبـه. (استنزاف الذات باتباع الوجاهة، وجنـون العظمة، نظير مكاسب هشة في صور عطية الجزرة المصونة بالعصا الخفية)
- العامـل الموضوع : الماثل في تدمـير النسق الذي يسعى إليه الآخـر، وتُستَغل فيه الذات للإسهام في الخراب، والتفكيك، وإعـادة ترتيب الواقع عـن طريق التناص الخارجي (الباراتاكسيس parataxis) .
- العامـل المساعد : وهو الذي يـؤازر الذات في مهمتها/

(1) حكاية العربي الأخير، ص 164
(2) المصدر نفسه، ص 248
(3) ينظر، تشومسكي، ثقافة الإرهاب، (التقديم)، ص13.
(4) ينظر، إدغار موران، النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة، هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009، ص 96.97.

الجديدة وافرًا، وتحت مسميات كثيرة بما فيها المنظمات الإنسانية الدولية التي تتظاهر بتقديم العون للذات في تشجيعها لمشروع (الموضوع، وهو صنع قنبلة الجيب الفتاكة).

ووثبًا على واجب الضمير الأخلاقي هناك مسببات سيكولوجية انضوت تحت طائلته، بوصفها نوعًا من التداعي الشيزوفريني في أفكار الشخصيات (من هذا النوع) التي ترى العالم من خلالها بصورة متشظية بانعدام الإرادة، ومثل هذه الرؤية المتشظية تصف، أفضل وصف، ثقافة متقطعة الأوصال/ التفكيك الذي جاء مع الفوضى والحرب الحديثة المدمرتين للعقل الحديث، وهذا ما ينعكس في الرواية الحديثة التي أنتجها الكتاب الذين ابتغوا من وراء هذا تزويد القارئ برهانٍ شكليّ مرعب على الكيفية التي انفرط بها عقد العالم[1].

عند هذا الوضع، يمكن اعتبار علاقة شخصية (آدم) مع الشخصيات الأخرى على أنها علاقة مشوبة بوظيفة واحدة، هي وظيفة الدمار، وكأنها جميعها جاءت لمؤازرة هذا المسعى الوظيفي، ولرعاية المهمة الطلوبة من آدم المجترئ على هويته، والمتجاسر على هذا الفعل الشنيع في غياب السند المعارض، أو المنبه، للحيلولة دون تحقيق الجرم، أو على الأقل إعاقته من هذه المهمة المعدّ لها بإحكام. وضمن هذا المنظور العلائقي جاءت أدوار شخصيات «حكاية العربي الأخير» ضالعة بالتوحش لتحقيق القصد، ومتحالفة فيما بينها للمشاركة في هدف واحد هو الهلاك، ولا شيء غيره؛ وبتمثيلها القادر على تفعيل عناصر الأحداث بدقة متناهية؛ للقيام بمساعدة (آدم) على إنجاز فعل الإجرام في محيطه؛ لذلك فإن العلاقة بين هذه الشخصيات هي بالأساس منضوية تحت سياق مجابهة ما سمي بالإرهاب مجازًا مرسلا، وممارسة فعل التدمير والخراب حقيقةً مُرَّة، في غياب الفعل المعارض، إلا من شبح الإرهاب المغيب عمدًا، حتى أصبح الكل على الذات، والذات مع الكل، ومن ثم تحددت المهمة بناء على خاصية مجابهة هوية الذات من الذات نفسها بفعل التدبير والقيادة السديدة، وعلى الرغم من ذلك لم يشفع لـ (آدم) أن كان مرضيًا عنه من قبل الآخر الذي تربى في حضنه، وتلقى ثقافته، ونال منه هويته بعد حصوله على الجنسية الأمريكية، وهو ما يبيِّنه هذا الحوار مع الماريشال: «لا أدري يا ماريشال لماذا لم يدخل في دماغكم أني أمريكي»[2]، ويشتد الموقف، ويحتد السرد المكثف في آخر الرواية؛ ليصل الأمر بين الشخصية الفاعلة في العملية السردية؛ للتشاور فيما ينبغي فعله، بعد محاولة الإرهاب اقتحام القلعةَ التي تضم الجميع بمن فيهم (آدم)، حينذاك تُبدي إحدى الشخصيات الفاعلة بالبوح للشخصية اللوجيستية، الرئيسة (ليتل بروز) بوصفه القائم على «لعبة المحق الفتاكة» في قولها:

– نحن في عملية ترحيل والخطأ غير مقبول يا سيدي، يحتاج الأمر إلى شيء آخر أكثر ذكاء. لماذا لا نسرب المعلومة لمجموعة شادو[3] المكلف باختطاف العلماء النوويين العرب، لا أحد يحاسبهم، ولا يهم إذا اعترف القاتل بعد سبعين سنة، يكون الزمن قد تغير.

– المهم أن يتم كل شيء خارج القلعة، زمن أسود يمشي بشكل عكسي، عربي يعلمنا ما يجب فعله وما لا يجب فعله؟ سأنتحر قبل أن أرى عربيا يحميني، أو يأمرني»[4].

وَفْقَ ذلك، هل بات (آدم) في سرد «حكاية العربي الأخير» إحالة إلى أنطولوجيا واقع قلعة (آرابيا) بهذه المهانة والابتذال؟ وهل بات يمثل ضميرها الجمعي فعلا؟ وهل تجرد ما تبقى من سلالة فصيلة (آدم) من

(1) ينظر، جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ص 119،121.

(2) حكاية العربي الأخير، ص 375.

(3) Shadow تعني الظل- كما ورد ذكرها في الرواية- وهي فرقة تم تدريبها بعناية دقيقة؛ للاغتيالات وتصفية العلماء، بدأت بتصفية أبرز العقول العاملة في الهندسة الكيمياوية والفيزياء والاختصاصات والبحوث المتقدمة، ينظر الرواية، ص 144، و 347

(4) المصدر نفسه، 438.

قيمهـا إلى الحد الذي وصفته الروايـة؟ وفوق ذلك، هل يمكـن أن نصوغ خيانة (آدم) على نحـو كلي للشخصية العربية، حاليا، بهذا الحد من الوضاعة؟ وإذا كان ذلك كذلـك، مع من تتماثل شخصيـة (آدم)؟ هل مع العربي الكلي (العهد) أو مع العربي، المتفرد، (الصفقة)؟

لعـل المتلقي يـدرك أن شخصيـة (آدم) تتطابق مع منظومة المؤسسة المتحكـم فيها بجهاز التحكم عن بعد، التي تعمل تحـت المراقبة بالأشعة تحت الحمراء، كما في المؤسسـات النافذة لقلعة (آرابيـا) ذات الطابع القيادي المستبد بالفكـر السياسي، والمحمـي في صورتي: (الكل للواحـد، والواحد للكل»[1]، وليس الـكل هنا إلا الآخر في صـورة الكولونيالية الجديـدة، والواحد في صورة المتفرد بالاستبداد، والخنوع.

إن في كينونـة أنطولوجيـا مؤسسـات (آرابيا) تبدو شخصيـة (آدم) الواحـد المتعدد، الأحَقّ بـه الآخر على حسـاب ذاته في ضميرهـا الجمعي، وهـي الصورة التي رسمهـا السـرد لـ (آدم) المُعَـدُّ سلفا بالمقاس لصالح الآخر، الماثل في سرد شخصية «العربي الجيد الوحيد هو العربي الميت»[2]، أما خارج هذه الكينونة بمنظور الذات لضميرهـا المرجعي، فإن «العربـي النسيبُ، الجُموعُ، هو العربـي الحي»؛ وما بـين الموت والحيـاة، يتصارع رهان التضاد في المبادئ، ويحتد الخـلاف الملتبس، بين الذات وذاتها، وبتوضيح الملازمة نفسها يشتد التضاد مع الآخر بشـكل جوهري، نظير الخلافات الثقافية المفتعلة، شكلًا ومضمونًـا، ومـا بـين استغـلال العربي الوحيـد الميت/ الواهـن، واستثمار العربي النسيـب، الجموع/ المخلص، يكمن الصراع بين تجزئة الذات ـ في ذاتها ـ قبل الصراع بين الذات والآخـر؛ لأن أية مطالبة لمواجهة الآخر، يجب على الذات أن تتصالح مع ذاتها؛ لكي تتحمل مسئولياتها الأنطولوجيـة والحضارية، ومـا لم يتحقق ذلك لن يكون للذات أي دور حضاري، وهي الحالة التي تعيشها الهويات القوميـة في كل أنحـاء العـالم في مواجهـة عنـف الآخر بالاقتحام ثقافيا، والمتسلط بعطية «الجزرة»؛ تبعيا، وهو الشاغـل نفسه الذي «واجهته النظريات ما بعد البنيوية، ومـا بعد الحداثيـة، في إعادة تعريف مفهـوم المسئولية؛ إذ هي ترى أن تحمـل المسئولية عن أفعالنا يعني الإقرار بهـذه الحدود التي تقيد فهـم الذات، وهي حدود لا تمثل مأزقـا للذات وحدهـا، بل للجماعـة الإنسانيـة جمعاء، فهـي إذن دالة على إنسانيتهـا. تترسب عتمتنا في خضم العلاقة مـع الآخرين، وتتركنا مكشوفـين أمام تأثيرهم وعنفهـم الأخلاقـي بالرغـم مـن أن جهودهـم معنا في مشهد المخاطبة هو ما يمنـح الذات الاعتراف، وبالتالي الوعي بذاتها.[3]

وبـين منطـق هويـة الـذات في الحرص علـى تعزيز الوجـود الأنطولوجـي، ومنطق هوية الآخـر في الحرص علـى الاستغلال بمفهومـه الكولونيـالي، ضاعت حقيقة الاعتراف المتبادل، انطلاقًا من الخلافات الثقافية، التي يراد لها، من الآخر، أن تكون متباينة قسرا. وتبدو عملية سـرد الرواية دقيقة الوصف بالشمولية ـ في اللا مقول في النصـ رغبة في توضيح سبيل الوضع العربي بمحمولاته الدلاليـة المرتبطة بواقـع منظومة مطالـب الكولونيالية الجديدة، التـي باتت تحمل مشروعـا ثقافيا تنضوي في مضامينـه كل المشاريـع ذات المصالـح النفعية. ومن ثم فإن ما حصـل عليه الآخر في الذات من مصالح نفيسة، لم تحصل عليه الذات من الآخر ـ في شيء ـ غير المصالح الغثة، وتوالي الملفوظات التسويفية، والوعود المخاتلة.

وإذا كانـت رحلـة حضـور الآخـر في الـذات ماثلـة في الحالـة التفكيكيـة، بوصفهـا خصيصة، تُسـوَّق إلى الهويـات القوميـة، فـإن رحلـة حضور الـذات في الآخر

(1) المصدر نفسه، ص 310، و 449.
(2) المصدر نفسه، ص 48، 107، 146، 160، 240، 271، 302،448، وفي مواضع عديدة من الرواية.
(3) جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، مقدمة المترجم، ص 11.

مغيبة قسرًا، إلا ما ظهر منها عبر الحاويات القياسية، وهي الحالة التي باتت الذات تعيشها باستمرار، وتتمدد بالتنوع، سواء عبر التخويف بسلطة العصا، أو بالترغيب بعطية الجزرة، وفي ذلك ما يشير إلى المفارقة المتضادة بين المشروعين، مشروع تأكيد الإنجاز في مقابل مشروع محاولة فهم ما يجري قبل التخطيط الاستراتيجي.

ومما لا شك فيه أن أي باحث لقراءة «حكاية العربي الأخير» لن يجد أفضل من الفرضيات التي عرضها علينا السرد الروائي بطرائقه الفنية المائزة، ولن يلقى أدق وصف للخنوع الذي وُصمت به شخصية (آدم) في رمزيتها الدالة على مهانة الشخوص المائلة عن جادة الصواب في هويتنا الثقافية، وواقعنا العربي الموبوء.

قائمة المصادر والمراجع

المصدر :

1. واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر 2015.

المراجع :

2. إدغار موران، النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة، هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
3. إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000م.
4. أنطوني كينج، وآخرون، الثقافة العولمة والنظام العالمي، ترجمة، شهرت العالم، وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001.
5. بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة نبيل عجان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2015.
6. جان بودريار، وإدغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2005.
7. جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
8. جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ترجمة، لطفية الدليمي، دار المدى، 2106.
9. حنا أرندت، في العنف، ترجمة، إبراهيم العريس، دار الساقي، ط1، 1992.
10. صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، مكتب سطور للنشر، ط2، 1999.
11. قيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة، سعيد بنكراد، دار الحوار، ط1، 2013.
12. نعموم تشومسكي، ثقافة الإرهاب، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، العبيكان للنشر.
13. Jean Baudrillard, J. The Spirit of Terrorism and Requiem for the Twin Towers. Trans. C. Turner (London: Verso. 2002)

المواقع الإلكترونية :

14. بدر الدين مصطفى أحمد، عن الإرهاب والحرب العالميَّة الرابعة: قراءة في كتاب روح الإرهاب لجان بودريار، الرابط، http://www.mominoun.com